

## البُعد الديني للكشوف الجغرافية

د. إبراهيم محمد أحمد بلولة (\*)

ل:

يجئ هذا البحث قراءةً تاريخيةً للأثر الديني للكشوف الجغرافية التي انطلقت تحت غطاء الجمعيات الجغرافية ، ولكن كانت في حقيقتها دعوة تمهيدية لتمكين الدعوة النصرانية هيمنة وتطويقاً للحضارة الإسلامية التي توسعت رقعتها حتى وصلت أرض الأندلس.

لذا جاءت هذه الدراسة لتثبت هذه الحقائق في خمسة مباحث هي كالآتي:

- المبحث الأول بمقدمة الدراسة وتحتة مطلبان:
- المطلب الأول: ظهور الإسلام
- المطلب الثاني: أثر حضارة الإسلام على العالم
- المبحث الثاني: أوروبا في القرون الوسطى وتحتة مطلبان:
- المطلب الأول: الصراع الفكري بين الحضارة الإسلاميّة والحضارة الأوربيّة.
- المطلب الثاني: النّهضة الأوربيّة والكشوف الجغرافيّة.
- المبحث الثالث: الكشوف الجغرافيّة في العصور القديمة، وتحتة ثلاثة مطالب:
- المطلب الأول: الحركة الكشفيّة في العالم العربي

(\*) أستاذ مساعد بمركز الدعوة وتنمية المجتمع جامعة إفريقيا العالمية - الخرطوم - السودان.

-المطلب الثَّاني: الحروب الصليبيَّة  
-المطلب الثَّالث: أثر ظهور الدَّولة الإسلاميَّة على العلاقات  
الدَّوليَّة.

-المبحث الرَّابع: الكشوف الجغرافيَّة الأوربيَّة، وتحتة ثلاثة  
مطالب:

-المطلب الأوَّل: دوافع الكشوف الجغرافيَّة  
-المطلب الثَّاني: اتجاهات الكشوف الجغرافيَّة الأوربيَّة.  
-المطلب الثَّالث: نتائج الكشوف الجغرافيَّة الأوربيَّة  
-المبحث الخامس: المحاولات الأوربيَّة للالتفاف حول العالم  
الإسلامي، وتحتة ثلاثة مطالب:

-المطلب الأوَّل: الغزو الأوربي للعالم الإسلامي  
للمطلب الثَّاني: كريستوفر كولومبس 1454م – 1506م  
المطلب الثَّالث: الرِّحالة وجمعية التبشير بإفريقيا  
- خاتمة: وتحتوي على:

- نتائج البحث  
- توصيات البحث

### المبحث الأوَّل

### مقدمة الدراسة وتحتة مطلبان

#### **المطلب الأوَّل: ظهور الإسلام:**

كان لظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربيَّة في القرن السابع  
الميلادي الأثر الكبير في نقل المنطقة كلها من حالة الجهل والتخلف،  
والعنصريَّة القبليَّة، وعبادة الأوثان، وتقديس الطاغوت إلى عبادة الله  
الواحد وإزالة الفروق بين البشر.

حمل الإسلام كافة المفاهيم الإنسانيَّة إلى ثلاثة محاور رئيسة:

[1] محور علاقة الفرد مع خالقه.  
[2] محور علاقة الأفراد والمجتمعات بعضها البعض.  
[3] محور علاقة الحاكم بالرعية وأسلوب الحكم<sup>(1)</sup>.  
لم يتسامح الشرع الإسلامي في إهمال أي محور من تلك المحاور، بل شدّد على تطبيق الكل، وهذا ما يتضح من سيرة الرسول ﷺ والصحابة والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم جميعاً)، فقد شدّدوا في كل مناسبة على تلازم هذه المحاور بحيث يكون المسلم مسلماً في كل شيء ابتداءً من سلوكه الشخصي، وسلوكه مع ما يحيط به، وأخيراً أسلوب حكمه إذا كان حاكماً.

قام الحكم في الإسلام على ثلاث دعائم رئيسية: العدل، والتسامح، وتكافؤ الفرص. أما العدل فيقصد به إعطاء كل ذي حق حقه من ثواب أو عقاب بغض النظر عن أي صفة اعتبارية، أو لون، أو عرق، أو دين. وأما التسامح فيعني حرية المعتقد والاتجاه السياسي. وأخيراً يعني تكافؤ الفرص وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وإتاحة الفرصة أمام جميع الرعايا لممارسة عملهم، ونشاطهم اقتصادياً واجتماعياً وعلمياً.

### المطلب الثاني: أثر حضارة الإسلام على العالم

كان لتطبيق أسلوب الحكم - النابع من إيمان ديني عميق - الأثر الكبير في انطلاق الحضارة الإسلامية وإشعاعها على العالم في ذلك الوقت.

انقلبت موازين وتغيرت مفاهيم وذهبت دول إلى غير رجعة، وزالت طواغيت إلى الأبد في فترة زمنية قصيرة لا تتوف عن الثلاثين عاماً منذ أن نزل الوحي على الرسول ﷺ لأول مرة، وتتابع

(1) فواد الجابري، ما يسمى (صدام الحضارات) من الانترنت.

[Http://saaid.net/minicte/75.htm](http://saaid.net/minicte/75.htm).

الإجازات الحضارية التي كان الشرع الإسلامي دعامتها ومنبعها وملهمها. كانت الفترة التي استمرت حوالي ستمائة عام تقريباً؛ فترة عقل وتنوير انفتاح. ولم يجد العلماء والمفكرون المسلمون وغيرهم ممن انضوا تحت لوائها حرجاً من الاستفادة من كل ما وقع تحت أيديهم من علوم واكتشافات بغض النظر عن دينها أو عرقها إذ لم يخرج ذلك عن نطاق النصوص الشرعية الإسلامية التي أمرتهم بالبحث عن المعرفة أينما وجدت.

لم تعد تلك الفترة من وجود الطامعين السياسيين، وأصحاب المصالح المادية البحتة، ولم تعد من وجود الباحثين عن السلطان والجاه والنفوذ، غير أن الوعي الديني الصحيح بين كافة فئات الناس من: خاصة وعامة ومن علماء وباحثين ومستشارين وأدباء وحتى عامة الناس، هذا الوعي كان يحبط دائماً الانحراف في مسيرة تلك الحضارة<sup>(1)</sup>.

(1) فؤاد الجابري، مرجع سابق.

## المبحث الثاني أوروبا في القرون الوسطى

في الفترة ذاتها (العصور الوسطى)، كانت القارة الأوروبية غارقة في الجهل والتخلف والعنصرية. وكان يحكمها خليط من إمبراطوريات لدّعت خلافة الإمبراطورية الرومانية، ومن إقطاعات عديدة متفرقة وصغيرة انتشرت في أنحاءها. وكان أصحاب السلطة والنفوذ من أباطرة وإقطاعيين وأمراء يتحالفون مع رجال الدين لإضفاء الشرعية على سلطتهم. ولم يجد أولئك مقاومة تذكر من الشعوب التي حكموها آنذاك والتي كانت غارقة في الفقر، والجهل، والمرض، الذي يدب في أوصالها في السنين الأخيرة للإمبراطوريات الرومانية. لم تجد محاولات قسطنطين في القرن الرابع الميلادي من إعلانه النصرانية ديناً رسمياً للدولة، ثم تقسيمه لها إلى شرقية وغربية، في بعث الروح في جسد الإمبراطورية الميت بل عجل بنهايتها، حيث حوّل بخطواته تلك تسامح النصرانية الأصولية إلى تعصب ديني وصل إلى أوجه مع بداية الحروب الصليبية.

ظلّ نجم حضارة الشرق العربي الإسلامي في صعود، وحضارة الغرب الأوربي في هبوط حتى إرهابات القرن الثالث عشر الميلادي. فمع توسّع مساحة الدولة الإسلامية وانضواء شعوب كثيرة تحت لوائها، كثرت المطامع السياسية، وعادت المناحرات القبلية إلى الظهور، وخاصةً مع ازدياد ثروة الأمة ورخائها فكان التقسيم السياسي لها إلى دويلات مما أثار شهوة الدول والشعوب المجاورة وغير المتحضّرة. هنا بدأ نجم العقل والدين والحضارة يأفل ويفسح المجال لانحطاط بدأ سياسياً، وانتهى دينياً واجتماعياً وفكرياً واقتصادياً، لا نزال نعيش آثاره إلى اليوم.

## المطلب الأول: الصراع الفكري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية:

لم تأب الحضارة الإسلامية أن تختفي وتضمحل قبل أن تفسح المجال للأوروبيين بأن ينهلوا منها، إذ كانت الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ثم الممالك في بلاد الشام الجسور التي عبرت منها الحضارة الإسلامية وشعت إلى الغرب الأوربي، حيث تدفقت الإنجازات الحضارية بكل أشكالها من علم وفلسفة وأدب لاهوت عبر مناطق التماس إلى الشعوب الأوروبية سواء بالبعثات الدراسية أم بالترجمات المكثفة أم الدبلوماسية أم بالتجارة أم بالحروب، ووجد في الغرب الأوروبي من يتبني التنوير، ويعهده فرصة للخلاص من نيران الحكم الأمراء ورجال الدين النصراني وتسلطهم، وخاصة في المدن التجارية الإيطالية التي احتفظت بعلاقات جيدة مع الشرق الإسلامي<sup>(1)</sup>.

استبدلت بخارى والري وبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان ومراكش وفأس وقرطبة كمراكز إشعاع فكري وحضاري في العالم المعروف آنذاك ببادوا وسانرنو، وبولونيا وفلورنسا، وبالرمو ثم لاحقاً لشبونة، ومدريد، وروما، ومونبلييه، وباريس، وبرلين ولندن وكانت نقطة البداية هي كسر القاعدة التي وضعها رجال الدين، والقائلة بعدم دراسة فكر الشعوب الأخرى غير النصرانية بحسبانه (زندقة وكفراً ومروقاً من الدين).

استمر الصراع حاداً بين الفكر الظلامي والفكر التنويري في أوروبا لمدة تزيد على ثلاثمائة عام، إذ لم يسلم الحلف المكون من الملوك والأمراء ورجال الدين مواقعه بسهولة. وعرفت القارة الأوروبية موجات عارمة من التعصب الديني والطائفي والعنقي،

(1) فؤاد الجابري، مرجع سابق.

وعانت من حروب داخلية مدمرة لكدّها عرفت في الوقت نفسه حركات إصلاح ديني وفكري واجتماعي واقتصادي كثيرة توجت بالثورة الفرنسية والإنجليزية. ثم تلا ذلك الوجدتان الألمانية والإيطالية، وعرفت على الصعيد العلمي تتابع الاختراعات والاكتشافات حتى يومنا هذا.

### المطلب الثاني: النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية:

كانت النهضة الفكرية الأوروبية سبباً رئيساً في الكشوف الجغرافية الكبرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر التي أظهرت طبقة من كبار التجار ثم الصناعيين بفعل الثروات المادية التي كان الشرق الإسلامي قد نالها قبل بحوالي 800 عام وهي حلقة الغنى والعقل والصحة.

أفسح اضمحلال طبقة الملوك والإقطاعيين ورجال الدين، وزوال التحالف بينهم المجال لظهور طبقة جديدة في مراكز القرار وهي طبقة تحالف الشركات الصناعية والتجارية الكبرى مع رجال السياسة الذين تبدلت ألقابهم وتغيرت مسمياتهم، إذ كان لابد للصناعات المتنوعة التي استحدثت بفضل التقدم العلمي والثروات الهائلة من المستعمرات المكتشفة حديثاً أن تبحث لها عن أسواق لتصريف منتجاتها، وعن يد عاملة رخيصة، و مواد أولية خام ضرورية لتلك الصناعات، فاشتد التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية الأكثر تطوراً، واتصف لأول مرة في التاريخ بالعالمية لأنه لم يعد مقتصرًا على الحدود البرية المشتركة بين دولتين، بل شمل البقاع التي وصلتها أساطيل وجيوش تلك الدول.

والمرحلة التالية تجيء بعد ذلك تفصيلاً في الكشوف الجغرافية في مراحلها المختلفة التي كانت تطوراً لما سبق ذكره وهي التي سيهتم بها الباحث، وذلك لأنها من وجهة نظره جاءت تطويقاً لحركة الإسلام

المنبتقة من الجزيرة العربية، وكذلك بداية الهيمنة التي يدور رهاها في العالم الإسلامي اليوم، وإضافة لذلك تأخذ ببعدها الديني الذي يخدم العالم الأوربي، ويمهد له سياسة الهيمنة التي يكاد يعيشها عالمنا الإسلامي في الوقت الحاضر.



### المبحث الثالث الكشوف الجغرافية في العصور القديمة

يجب أن لا نقتل من أهمية رحلات رجال الدين في العصور القديمة؛ لأنهم كانوا رابطة الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب في فترة أصيبت فيها معظم أنشطة الحياة في أوروبا بالشلل والتوقف ، واقتصر النشاط العلمي علي تلخيص الكتب العلمية القديمة، والتعليق وذلك بعد أن حسب النصارى في روما الشرقية أن الآراء القديمة الخاصة بشكل الأرض وحركتها وعلاقتها بالكون آراء وثنية منافية لتعاليم الدين النصراني.

#### **المطلب الأول: الحركة الكشفية في العالم العربي:**

في عام 622م، بعد أن سقطت روما بحوالي 120 سنة هاجر الرسول محمد بن عبد الله ع من مكة إلى المدينة ليبدأ في نشر رسالته وليحدد لنا بداية لتاريخنا الهجري الذي نميز به فترة العرب عن غيرها من الفترات التاريخية السابقة. فقد كان لظهور الإسلام، وانتشاره، ولنشاط العرب التجاري أثر كبير في تطور المعرفة الجغرافية والكشف الجغرافي . فاشتغال العرب بالتجارة في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر المتوسط في الأندلس<sup>(1)</sup>، كان له أبلغ الأثر في اتساع علمهم بالعالم القديم على وجه الخصوص. وقد

Alavi A., Arab Geography in the 9th and 10th Centuries, Indian Geog (1) Journal 1947, vol. 22. PP.41-55.

انظر أيضاً: Ahmed , N. , Muslim Contributions to Geogphy , Lahore , 1947 .

استطاع الرحالة العرب والمستكشفون أن يسهموا في زيادة معرفتنا في ثلاثة اتجاهات:

**الأول:** ناحية الشرق الأقصى ازدادت اتصالاتهم التجارية بالممالك التي تقع في هذه الجهات، فوصلوا إلى الصين والهند وإيران، كما كانوا أول من عرفوا قارة آسيا بمعنى الكلمة . فالاسكندر الأكبر استطاع أن يصل حقيقة إلى سيراداريا (Syradarya) لكن تمكّن المسلمون من عبور جبال (تيان)، والتوغّل مئات الأميال إلى الشرق منها، هكذا<sup>(1)</sup>. ولذلك فقد وقعت كل مدن وسط آسيا وبخارى وسمرقند وفرغانة وكشجار تحت نفوذهم في الفترة ما بين عامي 705-714م. وأول إشارة لوصول العرب إلى الصين قصة التاجر سليمان الذي قام بعدد من الرحلات إلى الهند والصين وذلك في منتصف القرن التاسع الميلادي.

ولعلّ قصة ألف ليلة وليلة تبرز لنا عن طريق غير مباشر ما حققه العرب في هذا الصدد، إذ جاء على لسان بطلها السندباد؛ أنّه جاب مشارق الأرض ومغاربها لدرجة أن أسماء الأماكن ومعالمها قد اختلط أمرها عليه<sup>(2)</sup>.

**الثاني:** يرجع للعرب الفضل في أنهم أول من استطاعوا التوغّل في الأراضي السودانية التي تقع إلى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى حيث أقاموا صلات تجارية هناك منذ عام 1076م ، كما أنهم أول الرواد الذين وصلوا إلى ساحل ناتال ، وذلك بالإضافة إلى أنهم اكتشفوا مدغشقر .

(1) Sybes (Sirperc) , Ahistroy of Exploration , London , 1949,PP,40 -49

(2) .Sybes ,op.50

**الثالث:** كان للعرب أيضاً قصب السبق في محاولة اختراق مناطق الاستبس الأوربية فعن طريق النشاط التجاري تمكنوا من الوصول إلى الأراضي الروسية والبولندية .

وقد كانت أهم الطرق التجارية في الإمبراطورية الإسلامية في ذلك الوقت تبدأ في مدينتي بغداد والبصرة، وتتبع نهري دجلة والفرات إلى الخليج العربي ، ومن ثمّ إلى الهند والصين، إضافة إلى جانب طريق فرعي آخر كان يتجه من العراق إلى ساحل إفريقية الشرقي وموانئ البحر الأحمر.

وعلى الرغم من أن التجار العرب فضلوا الطريق البحري في عودتهم من الهند إلا أنهم استخدموا في بعض الأحيان أحد طريقين: أحدهما يبدأ من مصب نهر السند إلى بلوختان ، والآخر من إقليم البنجاب إلى كابول، بالإضافة إلى طريق القوافل الذي يتبع الحدود الشمالية للإمبراطورية والذي كان يسير من سمرقند إلى بحر أورال ومن ثم إلى بحر قزوين وطريزون على البحر الأسود، فالحوض الأدنى لنهر الفولجا كما كان يخرج من استراباد ( Asterabad ) على بحر قزوين طريق آخر كان يتجه إلى جورجيا ( Djordan ) على بحر أورال، ومن ثم إلى بلاد القرغيز في جنوب روسيا، وقد كان ملكها على اتصال بكل من مدينتي القسطنطينية وقرطاجنة من خلال القرن العاشر الميلادي<sup>(1)</sup>.

### المطلب الثاني: الحروب الصليبية:

كان السبب في قيام هذه الحروب هو الرغبة في تأمين طريق الحجاج إلى فلسطين بعد أن وقعت معظم الأماكن المقدسة في أيدي العرب ، وقد كانت لهذه الحروب أهمية كبرى في الكشف الجغرافي، إذ مكنت الشعوب

(1) يسري عبد الرازق الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1975م، ص 69-70.

الأوروبية من الاحتكاك بالحضارة الإسلامية وبالفلسفة العرب ؛ الأمر الذي أدى في النهاية إلى انتقال الحضارة العربية إلى الغرب . ومع الحروب الصليبية ازدهرت كثير من المدن التجارية في إيطاليا كـ"جنوة" و"بيزا" و"فينيسيا"، وغيرها من المدن الإيطالية التي استفادت من عمليات نقل معداتها، بالإضافة إلى النشاط التجاري الذي صاحب الحروب الصليبية، والذي أدى إلى نشاط الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، وكان من نتائج الحروب الصليبية وازدياد النشاط التجري أيضاً أن اتجهت كثير من الرحلات إلى مناطق خارج نطاق البحر المتوسط . ومن ثم أعيد اكتشاف كثير من جزر المحيط الأطلسي المجاورة للساحل الغربي لإفريقيا<sup>(2)</sup>.

وهكذا يتضح لنا من دراسة الكشوف الجغرافية في العصور الوسطى أو في الفترة السابقة للكشوف الجغرافية الكبرى التي قام بها البرتغاليون والأسبان في عصر النهضة ، أن هناك ثلاث مجموعات بشرية كانت وراء تشكيل خريطة العالم، وإضافة معلومات جديدة إلى التراث الجغرافي وهذه المجموعات هي:

**أولاً:** الجماعات النصرانية المتمركزة في أوروبا التي لم تستطع أن تسهم في تطوير الخريطة سوى بمحاولتها الالتجاء إلى التوراة أو الإنجيل لتتخذ منه أساساً لكتاباتهما الجغرافية التي لم تهدف إلى البحث عن الحقائق العلمية الجديدة بقدر ما هدفت إلى تثبيت المعتقدات النصرانية . وهكذا اتخذت هذه الجماعات من القدس مركزاً للعالم الكروي الذي يحيطه بحر الظلمات. ونجد كذلك بعثات التبشير التي أرسلت من أوروبا إلى بلاد المغول على أمل أن ينجحوا في ضمهم إليهم بعد اعتناقهم الدين النصراني لكي يصبحوا قوة واحدة أمام العالم الإسلامي المتمركز في منطقة الشرق الأوسط.

(2) Wood – H.J.- Exploration and Discovery – London – 1951 – P.57.

**ثانياً:** أما المجموعة الثانية فهي تلك التي تركزت في شبه الجزيرة العربية، واتخذت من الدين الإسلامي حافزاً للرحيل والانتقال، كما اتخذت من كتابات بطليموس والإغريق دستوراً لسلوكه عبر القارات، ومن الكعبة والحج مكتبة ثقافية تجمع منها بواسطة الكلمة ما يرويه الحجاج أو يسمعونه في أثناء رحلة الطريق، هكذا<sup>(1)</sup>. وقد اتخذ المسلمون من كل هذه الأشياء دوافع للخروج بخريطة العالم من النطاق الإغريقي الروماني المكوّن أساساً من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى مجالات جديدة، وآفاق أوسع إلى شمال البحر الأبيض المتوسط وإلى سافنا السودان في الجنوب وإلى قلب آسيا في الشرق.

غير أنّ هذا التوسّع لم يحمل بين طياته الطابع العلمي بمعني الكلمة، إذ كانت النجوم والكواكب مرشد الرحلة وموجّهها. كما كانت ضروب الصحراء هي مسالكها، والجمال هي وسيلتها، كما كان المقياس هو اليوم أو بضع يوم حسب حال البيئة وحسب الإمكانيات المتعددة التي يجدها الرحالة في طريقه.

**ثالثاً:** بالنسبة للمجموعة الثالثة، وهم جماعات الفيكنج (The Vikungo) ومعناها قراصنة البحار أو رجال الشمال، فلم يظهروا على المسرح الجغرافي إلا في أواخر القرن العاشر الميلادي، واتسم نشاطهم بركوب البحر والإغارة والتجوال في مناطق كانت الرحلة إليها محدودة، ومن ثم فقد اندفعوا من السويد شرقاً عبر البلطيق إلى دول أوروبا الشرقية، كذلك خرجوا من النرويج هرباً من فقر البيئة نحو المحيط الأطلسي وأخذوا يهددون إنجلترا ويغيرون على فرنسا وعلى البحر الأبيض المتوسط إلى أن انتهى بهم المطاف للوصول إلى جزيرة آيسلنده وجرينلند ونيوفونلاند، ومن ثم للساحل الشرقي

(1) يسري عبد الرازق الجوهري، مرجع سابق، ص 81.

لأمريكا الشمالية حتى فلوريدا جنوباً حيث سجلوا بذلك قصب السبق في الوصول إلى العالم الجديد قبل كولمبوس.

**المطلب الثالث: أثر ظهور الدولة الإسلامية على العلاقات الدولية:**

**أولاً:** احتلت الدولة الإسلامية رقعة من الأرض كانت تحكم من مداخل الطرق التجارية بين أوروبا وآسيا وإفريقيا ، فكان موقع الدولة الإسلامية يتوسطها ويسيطر على طرق الاتصال بينها.

سيطرت الدولة الإسلامية على الطرق التجارية البرية الآتية:

(أ) الطريق البري الذي كان يربط أوروبا بالصين عبر آسيا الوسطى.

(ب) الطريق البري الذي كان يربط أوروبا بالخليج العربي، ثم المحيط الهندي.

(ج) طريق التجارة البري الذي كان يربط البحر المتوسط عبر شبه الجزيرة العربية بالمحيط الهندي، والذي يقود إلى جنوب شرق آسيا.

(د) الطريق البري الذي كان يربط البحر الأبيض المتوسط بإفريقيا عبر مصر وشمال إفريقيا.

كما سيطرت الدولة الإسلامية على الطرق البحرية المهمة في المنطقة:

- [1] البحر الأبيض المتوسط الذي كان يربط أوروبا بإفريقيا.
- [2] البحر الأحمر الذي كان يربط الجزيرة العربية بشرق آسيا.
- [3] الشواطئ الشرقية للمحيط الأطلسي الذي كان يربط أوروبا بغرب إفريقيا.
- [4] الخليج العربي لذي كان مدخلاً للمحيط الهندي.

**ثانياً:** ظهور قوة دولية سيطرت على الموارد الاقتصادية في العالم، وعلى التجارة الدولية<sup>(1)</sup>.

**ثالثاً:** التنافس الذي ظهر بوجود دولة ذات حضارة، تقوم على عقيدة تصحح وتكمل معتقدات الحضارة الغربية. كل ذلك وضع أوربا أمام تحدٍ اقتصادي وحضاري، وكان عليها أن تواجهه، ولكدّها لم تقطع علاقتها التجارية والعلمية مع الدول الإسلامية. حاولت أوربا إعادة هيمنتها على المنطقة عدة مرات ولم يتسنّ لها إلاّ بعد ضعف الدولة الإسلامية، وانقسامها إلى دويلات متناحرة.

#### المبحث الرابع

#### الكشوف الجغرافية الأوروبية

بعد فشل الحملات الأوربية المدعومة من الكنيسة والبابا والتي عرفت بالحروب الصليبية، عجزت أوربا عن اختراق العالم الإسلامي لتتفد إلى الشرق الأقصى عبر الطرق البرية والبحرية. بالرغم من فشل الاختراق العسكري، بدأت أوربا في تطوير وسائل الاختراق، واتخذت هذه المرة الكشوف الجغرافية، حول إفريقيا، وعبر آسيا لتطويق العالم الإسلامي.

للكشوف الجغرافية الأوربية الأثر الكبير في التاريخ المعاصر، خاصةً فيما يتعلق بالتوسّع الاستعماري الأوروبي في عالمنا الإسلامي، فقد كانت البلاد الإسلامية آنذاك تعيش في شكل دويلات مختلفة، وبالرغم من ذلك فقد صمد المسلمون في وجه أعدائهم، وقاموا بمحاولات مقتررة لإقامة دولة إسلامية، تحقّق الوحدة للعالم الإسلامي.

#### **المطلب الأول: دوافع الكشوف الجغرافية:**

(1) يسري عبد الرازق الجوهري، مرجع سابق، ص 82.

### أ/ الواقع العلمي:

احتكت أوروبا النصرانية بالعالم الإسلامي في فترة الحروب الصليبية، وعرف الأوروبيون من المسلمين بعض المفاهيم العلمية الجديدة، خاصة في مجال الجغرافية والفلك. (الإدريسي<sup>(1)</sup>)، البيروني<sup>(2)</sup>، ابن حوقل<sup>(3)</sup>...) وتمت قناعتهم بكروية الأرض، فنما عندهم حب المغامرة والمعرفة الجغرافية، وروح البحث العلمي.

### ب/ الدافع السياسي:

تطوّرت أوروبا سياسياً، ونشأت بعض الدول مثل: أسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا وهولندا. وأرادت هذه الدول أن توسّع من مناطق نفوذها، وتعزز اتجاه الكنيسة في نشر المبادئ النصرانية، مما شجّع الكشوف الجغرافية عند الأوروبيين.

### ج/ الدافع الديني:

يشكّل العامل الديني أهمية كبرى في حركة الكشوف الجغرافية، خاصة لدى الأسبان والبرتغاليين الذين حرصت كنيستهم على نشر المذهب الكاثوليكي، وشجّعت البابوية هذا المذهب رغبةً في نشر النصرانية خارج أوروبا.

### د/ الدافع الاقتصادي:

من المعلوم أنّ العالم الإسلامي بموقعه المتميّز، يسيطر على حركة التجارة في الشرق، ويتحكّم في المضائق المائية، ويتحكّم في

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وهو كتاب في الجغرافيا الوصفية، ترجم للأعلام ترجمة مختصرة.

(2) البيروني، القانون المسعودي، في الفلك والرياضيات، واهتم بمناقشة شكل الأرض واستدارتها وتحركاتها وخطوط الطول والعرض.

(3) أبو قاسم محمد بن حوقل، المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، وهو كتاب في الجغرافية الوصفية ويعكس مدى الاهتمام بتسجيل المعرفة الجغرافية والإضافة إليها كما يصور مدى الاعتماد على حصاد المرحلة في هذا التسجيل الجغرافي الوصفي.



منتجات الشرق كالتوابل والبخور، ولا تصل هذه المنتجات إلى أوروبا إلاً عبر الطرق التي يسيطر عليها المسلمون، ويحتكر التجارة عبرها تجار مسلمون، مما أدّى إلى رفع أسعار تلك السلع. ولهذا فقد تنادت دول أوروبا لهذه الكشوف للسيطرة على التجارة العالمية والتخلُّص من الاحتكار التجاري ولإضعاف اقتصاد الدول الإسلامية، والحصول على منتجات الشرق وموارده.

#### المطلب الثاني: اتجاهات الكشوف الجغرافية الأوروبية<sup>(1)</sup>:

بدأت الكشوف الجغرافية الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي بالكشف عن المناطق المجهولة بالنسبة للأوروبيين، وانتهت في القرن التاسع عشر الميلادي باستعمار تلك المناطق المكتشفة. وكانت هذه الكشوفات الجغرافية الأوروبية بحرية وبرية.

#### (أ) الكشوف البحرية:

بدأت الكشوف البحرية حول إفريقيا وتعدُّ البرتغال رائدةً لهذه الكشوف، فقد سبقت الدول الأوروبية الأخرى في هذا المجال، وتعود هذه الريادة إلى خبرة الأمير هنري الملاح (1334م-1460م) الذي أسس أكاديمية بحرية في البرتغال، فتوافرت الخبرة في مجال الملاحة والرحلات الجغرافية، ومما شجّع هنري، نجاح مجموعة من الحملات الكشفية، وقد كانت أهدافه تتلخص في الآتي:

- [1] نشر النصرانية على المذهب الكاثوليكي.
- [2] تعقب المسلمين الذين أُخرجوا من الأندلس، والقضاء عليهم.
- [3] اكتشاف طرق جديدة للتجارة غير تلك التي يسيطر عليها المسلمون.

#### [4] السيطرة على تجارة الشرق.

(1) فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مطبعة جامعة النيلين، الخرطوم، 1999م، ص43.

وكانت هذه الرحلات الكشفية البحرية تدور حول إفريقيا وهي:  
[1] رحلة الأمير هنري الملاح، واحتلال سواحل المغرب حتى  
نهر السنغال.

[2] رحلة بارثولمييو دياز الأولى التي أوصلته إلى خليج غينيا،  
وساحل العاج ونيجيريا والكاميرون حتى مصب نهر الكونغو.

[3] رحلة بارثولمييو دياز الثانية التي أوصلته إلى رأس الرجاء  
الصالح.

[4] رحلة فاسكو داجاما (1497م)، التي دار فيها لأول مرة  
حول إفريقيا حتى التقى الملاح المسلم شهاب الدين أحمد بن ماجد،  
الذي كان ملقباً بأسد البحر، والذي قاد فاسكو داجاما عبر المحيط  
الهندي إلى السواحل الغربية لشبه جزيرة الهند، وهذا يؤكد الدور  
الريادي للمسلمين في هذا المجال. أمّا أسبانيا فقد اتجهت كشوفها  
البحرية غرباً، ومن أشهر الرحلات الأوربية غرباً؛ كانت رحلة  
كرستوفر كولمبس (1492م) والتي أوصلته لجزر المحيط الأطلسي  
والتي أطلق عليها جزر الهند الغربية ذلك لأنه كان في رحلته هذه يود  
الوصول إلى جزر الهند الشرقية (جزر التوابل والبخور). ثم توالت  
الكشوف والرحلات البحرية، ومن أشهرها: رحلة ماجلان حول  
العالم.

ومواصلةً لهذه الرحلات تمكّن بعض المكتشفين من الوصول إلى  
الجهات التي توصل إليها كولومبس، وتم اكتشاف الأراضي الجديدة  
والتي عُرفت فيما بعد (بأمريكا).

#### (ب) الكشوف البرية:

اهتمت أوروبا فيما بعد بالكشوف داخل قارة إفريقيا، وقد تركز  
الاهتمام على كشوف إفريقيا جنوب الصحراء، ومن أشهر الرحلات  
الكشفية داخل إفريقيا تلك التي اهتمت بكشف منابع الأنهار وهي:

[1] كشوف منابع نهر السنغال، ونهر النيجر، وأشهر الرحالة في هذه المناطق (منقو بارك).

[2] كشوف نهر الكونغو، ومن أشهر الرحالة (استاغي).

[3] كشوف نهر الزمبيزي، ومن أشهر الرحالة (لفنجستون وسيسل رودس).

[4] كشوف نهر النيل الحديثة، وأشهر المكتشفين (صمويل بيكر وبروس ثم لفنجستون وستانلي) عبر البحيرات.

ثم توالى رحلات المكتشفين الذين كانوا في الأصل هبّذين تدعمهم الكنيسة، والجمعيات العلمية الجغرافية.

#### المطلب الثالث: نتائج الكشوف الجغرافية الأوروبية<sup>(1)</sup>:

أثّرت الكشوف الجغرافية الأوروبية على كثيرٍ من أجزاء العالم وقد انعكس هذا الأثر على عالَمنا الإسلامي وعلى قارة إفريقيا على وجه الخصوص، وتبيّن أمرها ببعدها الديني الواضح، وسنرى ذلك في أهم نتائجها وهي كما يلي:

[1] انتقال مراكز التجارة من حوض البحر الأبيض المتوسط وشرق المحيط الأطلسي إلى غرب أوروبا، وبذلك تم عزل العالم الإسلامي عن السيطرة على تجارة العالم.

[2] زادت المنافسة بين الدول الأوروبية على حيازة المناطق، بغية الحصول على المواد الخام والأسواق، لتصريف منتجاتها الصناعية.

[3] قويت أوروبا اقتصادياً، وبدأت سيطرتها على العالم كله.

(1) فيصل محمد موسى، مرجع سابق، ص 45.

[4] قويت النعرة القومية في أوروبا، وسعت لإظهار القوة والعزة مما عزّز روح التوسّع والسيطرة على الدول الضعيفة، واستعمارها واستغلال ثرواتها.

[5] ظهور روح المغامرة في سبيل نشر النصرانية التي كانت تشجعها الكنيسة.

[6] انتقال الصراع السياسي بين الدول الأوروبية من أوروبا إلى الدول المستعمرة.

[7] انتقال روح النعرة القومية إلى الدول المستعمرة مما أدّى فيما بعد على طبيعة حركات المقاومة ضد الاستعمار.

بهذا كله تركت الكشوف الجغرافية الأوروبية أثراً واضحاً في الدول الإسلامية، وكان الأثر المباشر في مجال الاقتصاد في بلاد الشام ومصر واليمن، فبعد أن كانت هذه البلاد تمتلك الثروات الهائلة من بضائع الشرق الأقصى، خلت الأسواق من البضائع نتيجة لاكتشاف الطرق التجارية الجديدة وحل الكساد بمصر، وقلّت حركة الأسواق في القاهرة والإسكندرية، ولم يبق لمصر من العلاقات التجارية التي تربطها بالخارج سوى بعض الحاصلات التي كانت تأتيها من بلاد العرب والحبشة والسودان، وبلاد المغرب، إلى جانب ما يصلها من فرنسا وتركيا والشام، فقلّت ر الاقتصاد وأدّى ذلك على السياسة والعمران.

#### المبحث الخامس

#### المحاولات الأوروبية للالتفاف حول العالم الإسلامي

لقد استطاع الإسلام في أقل من قرن أن يسيطر على ملتقى ثلاث قارات هي آسيا وإفريقيا وأوروبا، وأن يعيش على خطوط التجارة العالمية من الهند إلى غرب وشمال أوروبا، ولم يحل استيلاء

المسلمون على المنطقة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلنطي دون استمرار تجارة أوروبا النصرانية مع آسيا أو إفريقيا، بل إن هذه التجارة استمرت حتى إبان الحروب الصليبية التي أدت إلى كثير من التلاحق الحضاري بين الفريقين المتحاربين، وقد كانت هناك شراكة فعلية بين تجار البندقية في إيطاليا، وتجار الشام ومصر في إدارة التجارة مع الهند في التوابل والحرير بنظم تمويل إسلامية مع استعمال الدينار كعملة حرة دولية.

ولكن في القرن الخامس عشر الميلادي بدأت أوروبا النصرانية تخرج من القرون الوسطى وتبني قوتها الاقتصادية والعسكرية. ففي هذا القرن انتهت الحروب الطاحنة والطويلة في فرنسا وبريطانيا وشيئت دول غرب أوروبا أساطيلها البحرية وبدأت استكشاف المحيطات، كما اخترعت المطبعة والأسلحة النارية، وقد مكنت هذه التغييرات أوروبا النصرانية من إخراج المسلمين من الأندلس ثم ملاحقتهم عبر مضيق جبل طارق منذ عام 1415م (أي بعد سبعة قرون من الهيمنة على الأندلس التي غزوها عام 711م)، ولكن في شرق البحر الأحمر ظل المسلمون يهيمنون مع حلفائهم من تجار البندقية على التجارة العالمية عبر الشام والبحر الأحمر بل راحوا يسجلون انتصارات جديدة حتى استولوا على القسطنطينية عام 1453م<sup>(1)</sup>.

وبعد أن أُجلي المسلمون من الأندلس شرع الأسبان والبرتغاليون في غزو المغرب العربي في عام 1415م، ولكنهم فشلوا في ذلك وهزموا فاتجهوا إلى تطبيق استراتيجية أطول أمداً ولكنها أكثر فاعلية، فقد قام ملوك البرتغال، خاصة الأمير هنري الملاح برسم هذه

(1) محمد هاشم عوض، مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، العدد (15)، دار جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، 1996م، ص 46-48.

الاستراتيجية وتنفيذها اعتماداً على قواتهم البحرية وانطلاقاً من رغبتهم في محاربة الإسلام من جهة أخرى، وقد كانت استراتيجية هنري الملاح هي الالتفاف حول المنطقة الإسلامية، والوصول إلى الهند بالدوران حول إفريقيا التي أوضح الجغرافيون المسلمون أنها جزيرة تحيط بها الماء، وقد كان البرتغاليون يأملون من ذلك ليس فقط في كسر احتكار تجارة الهند للمسلمين وحلفائهم الطليان، ولكن أيضاً في الوصول إلى الملك الإفريقي النصراني الأسطوري المسمى (بريستور جون) الذي كانوا يأملون في التحالف مع جحافل الضخمة في دحر المسلمين.

وبالفعل استطاع بارثولوميو دياز اجتياز رأس الرجاء الصالح في عام 1488م، وفي عام 1497م وصل فاسكو داجاما إلى الهند، ولكن لطول الطريق البحري الجديد ومخاطره صار غير قادر على منافسة الطرق القديمة التي تمر بالمنطقة الإسلامية، ومن ثمّ اتجه البرتغاليون إلى قفل منافذ التجارة الإسلامية في الخليج والبحر الأحمر بعد أن حطموا الأسطول المصري الطلياني المشترك في عام 1509م، وتوغّل قائدهم البكيركي باحتلال مكة المكرمة وهدم الكعبة، ولكن السلطة العثمانية التي احتلت مصر عام 1517م استطاعت أن تمنعهم من دخول البحر الأحمر، ولم تستمر سيطرتهم على مضيق هرمز طويلاً، وسرعان ما فقد البرتغاليون احتكارهم للتجارة مع الهند، إذ عادت إلى الطرق التقليدية عبر المنطقة العربية هيمنتها السابقة، وما أن حل عام 1540م حتى كان الطريق القديم عبر الإسكندرية وحلب إلى البندقية ومرسيليا أكثر حركة من الطريق الأطول عن طريق رأس الرجاء الصالح، فقد كان طول هذا الطريق

من كلكتا إلى لشبونة تسعة ألف ميل مقابل خمسة ألف ميل هي طول الطريق من كلكتا إلى البندقية مروراً بالبحر الأحمر<sup>(1)</sup>.

### المطلب الأول: الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي:

إنَّ الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي قد تم خلال مرحلتين: **المرحلة الأولى:** مرحلة تطويق العالم الإسلامي، وهذه المرحلة التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس عشر، وأبطالها: هنري الملاح، وفاسكو داجاما وخلفاؤهم. وقد وصفهم المؤرخ كيرك بأنهم (كانوا يهدفون إلى السيطرة على الشاطئ الإفريقي من المحيط الأطلنطي مولاً بين وجهتهم نحو الجنوب، في محاولة للالتفاف حول ديار الإسلام وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية من انتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات إفريقيا الغربية من يد المسلمين، ثم الاتصال مما وراء الصحراء الكبرى جنوباً بنجاشي إثيوبيا والاشتراك معه في مهاجمة المسلمين من الجنوب)<sup>(2)</sup>.

وقد استطاع فاسكو داجاما أن يصل عام 1488م إلى رأس الرجاء الصالح. ثم اتجه إلى الهند وكان أحمد بن ماجد المسلم هو قائد سفنه إلى ثغور الهند، ومن ثمَّ تحوَّلت التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بعد أن كانت تمر بالبحر الأبيض المتوسط، واستطاعت البرتغال أن تستولي على مسقط وهرمز والبحرين عام 1515م، وأن تصل إلى قاليقوت (كلكتا) أعظم ثغور الهند.

ولم يلبث الفرنسيون والإنجليز أن ورثوا البرتغاليين وأزاحوهم وسيطروا على هذه المناطق، وبلغت هولندا جزر الملايو، فاقتمتها مع بريطانيا (جاوة وسومطرة في يد هولندا، والملايو في يد بريطانيا)، كما سيطرت بريطانيا على الهند. وفي الوقت نفسه كانت

(1) محمد هاشم عوض، مرجع سابق، ص 4846.

(2) C. Broclemann - History of Islamic People - Liadan - 1965. P194.

روسيا قد بدأت تحقّق مطامع بطرس الأكبر في الاستيلاء على أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي، فقد استولت على فزان واستراخان في منتصف القرن السادس عشر، وبدأ التوسّع الروسي في الأراضي الإسلامية. ثم امتد حتى وصل الروس إلى القوقاز وسهول تركستان، ثم توالى حركة استيلائها في خط واحد مع فرنسا وإنجلترا<sup>(1)</sup>.

### المرحلة الثانية (مرحلة تقسيم العالم الإسلامي):

بدأت بالحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، وانتهت بهدنة الحرب العالمية الأولى عام 1918م إذ تمت عملية توزيع الأجزاء الباقية من البلاد العربية والتابعة للدولة العثمانية بين فرنسا وإنجلترا، وهي: العراق والشام بأجزائه، وأصدر وعد بلفور الذي أعطى للصهيونية العالمية حق إقامة دولة في فلسطين، وقد تمت عملية التقسيم هذه خلال مائة وعشرين عاماً تحركت فيها الأحداث في طريق إتمام سيطرة النفوذ الغربي على العالم الإسلامي كله، بالاحتلال العسكري أو المعاهدات وكانت هذه هي المرحلة التنفيذية للمرحلة الأولى، حركة تطويق العالم الإسلامي التي بدأت منذ أن انتهى آخر خيط لتحرر أوربا من النفوذ الإسلامي<sup>(1)</sup>.

وفي أعقاب الحروب الصليبية التي انهزمت في المشرق وانتهت بقيام دولة إسلامية شامخة؛ هي الدولة العثمانية التي استولت على القسطنطينية عام 1453م، بينما استطاعت الحروب الصليبية في المغرب أن تحقق إجلاء المسلمين والدولة العربية من الأندلس.

(1) Andere and Brown – Africa in the Nineteenth century – Ibdan – 1960. P195.

(1) Ahmed .N. Muslim Contributions to geography – Lahore – 1972.P57.



وقد ترابطت هذه الحركة منذ أن قام هنري الملاح بحملته على العالم الإسلامي بادئاً عملية التطويق عام 1450م حتى دخل اللورد النبي إلى القدس عام 1918م، وأعلن في عبارةٍ قصيرة: (انتهاء الحروب الصليبية)<sup>(1)</sup>.

### المطلب الثاني: كرسنوفر كولومبس (1454م-1506م):

لقد تعددت الصفات والسمات التي أعطاها الباحثون عن كولومبس والتي يسردها المؤرخ ديلنو ويست (Delno West) بقوله: (يُعتبر كولومبس بحق أول بطل أمريكي بكل ما يترتب على هذا اللقب من حقوق ومزايا وأساطير وخرافات وانتقادات، فلقد وُصِفَ كولومبس بصاحب الخيال الخصب، والدؤوب، والشجاع، والذكي، والجاهل، والمقدام، وصاحب الخط الجميل، والأناني، والمتواضع، والجشع، والكريم، والمتمسك برأيه، واللحوق، والأسباني، واليوناني، واليهودي، عضو رهينة القديس فرانسيس، العالم، والزاهد، والتاجر، وعضو المحفل الماسوني ... وغير ذلك)<sup>(2)</sup>. كان له هدف رئيس أسمى - في نظره هو - كرس له كل جهوده بل وحياته. كتب مرةً عن هذا الهدف إلى ملك وملكة أسبانيا فريديناند وإيزابيلا قائلاً: إنّه يريد أن يكتشف ممالك ومدناً جديدة يضمها إلى التاج الأسباني، ويهدي شعوبها إلى الدين المسيحي، ثم يجندها فيما سمّاه

ب(حرب الحياة أو الموت ضد إمبراطورية محمد) وأضاف أيضاً بأنّ

(1) عبد الحميد عبد الغني، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، 192، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

(2) جارودي، روجيه، الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 57، ترجمة: م.ع كيلاني، دمشق، دار الكاتب، عام 1996م.

هدفه النهائي هو (استعادة) الأراضي المقدّسة، وخاصةً القدس ومهد المسيح وذلك تمهيداً لنزول مملكة الله على جبل صهيون<sup>(1)</sup>.

وقد أصبحت رسالة كولومبس التي بعث بها إلى العرش الأسباني فور عودته من رحلته الأولى التي أرّخها في 1492/2/15م، خطة عمل ومنهاج حياة التزم به طيلة عمره.

طُبعت هذه الرسالة فيما بعد في عام 1493م ودُرّجتم إلى لغات عديدة كما أُعيدت طباعتها عدة مرات حتى أصبحت وثيقة رسمية تمثّل البرنامج الأيديولوجي للأوروبيين في حملاتهم الاستكشافية الاستعمارية والتبشيرية. ويلخّص كولومبس هذا البرنامج الشمولي في الرسالة كما يلي: (غزو العالم وهداية البشرية إلى المسيحية، واستعادة الأراضي المقدّسة، والإعداد لإنشاء مملكة الإله على جبل صهيون في موقع الهيكل)<sup>(1)</sup>.

كما يؤكّد مؤرخو كتاب (الأمة الأمريكية - 1981م) في الصفحة الثانية، أنّ (كولومبس تصوّر نفسه رسول الوحي المستقبلي الكتابي الذي ينبئ باستعادة القدس وهداية اليهود). كان كولومبس يوقّع اسمه بصيغة مميزة (كريستوفرنز Christopherez) وتعني باللاتينية (حامل المسيح)<sup>(2)</sup>.

وقد كتب غبن كولومبس (فريناند) في سيرته أن مهمة كولومبس المقدّسة كمبشّر عالمي كانت شبيهة بمهمة القديس كريستوفر الذي حمل المسيح الطفل عبر النهر الهادر على كتفيه. كما أنّ كولومبس نفسه أُسّر إلى دفتر يومياته يوم الجمعة 1492/11/16م: (لقد

(1) زروق، أسعد، إسرائيل الكبرى، ص 89، بيروت، مركز الأبحاث، 1973م.

(1) طمسون، توماس، الماضي الخرافي للتوراة والتاريخ، ص 124، ترجمة عدنان حسين، دمشق، دار قدس، 2001م.

(2) كنعان، جورج، أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين، ص 164، بيروت، دار الطليعة، 1978م.

زرعت الصليب في كل مكان وطنته قدامي سواء في الجزر أو القارات<sup>(3)</sup>.

### المطلب الثالث: الرحالة وجمعيات التبشير بإفريقيا:

أهم الرحالة الذين زاروا إفريقيا في الفترة الأولى من القرن التاسع عشر، وكان توغُّلهم فيها كأفراد استفادوا من المساعدات التي مدتهم بها العناصر الإفريقية العربية حيث كان يوجد نفوذ عربي إسلامي في معظم أنحاء إفريقيا، ولم يكشف هؤلاء عن وجههم التبشيري النصراني في بادئ الأمر وبعد أن قويت شوكتهم بدأوا في تأليب العناصر الإفريقية ضد الإسلام والعروبة مثلما حدث في يوغندا وجنوب السودان ونيجيريا وكينيا. ومن أهم هؤلاء الرحالة<sup>(1)</sup>:

[1] بيكر صمويل باشا (Baker, Samuel Pasha)

(1821م – 1893م):

وهو بريطاني الجنسية، كان - في بادئ الأمر - يعمل ضابطاً إدارياً في بريطانيا، ثم ترك العمل الإداري وقام بمغامرات ورحلات إلى إفريقيا في محاولة لاكتشاف منابع النيل. وكل توغُّله عن طريق مصر إلى جنوب السودان. وقد عاصره في هذه الفترة الرحالان سبيك وجرانت. اكتشف بعد رحلة مثيرة بحيرة ألبرت عام 1865م، وعاد بعدها إلى أوروبا فشر كتاباً مثيراً عن مغامراته وقد سلَّط هذا الكتاب الضوء عليه، ولما رغبت الحكومة الخديوية في مصر في الاستعانة بخبرات الأوربيين في مجال اكتشاف منابع النيل، وفتح الملاحة النيلية فيه؛ فقد تمت الاستعانة به في فترة الخديوي إسماعيل

(3) كنعان، جورجي، العنصرية اليهودية، ص 43، بيروت، دار النهار، 1983م.

(1) فيصل محمد موسى، مصدر سابق، ص 14.

وعِيَّه الخديوي إسماعيل حكمداراً على جنوب السودان، وذلك لتحقيق غرضين: اكتشاف منابع النيل، وإيقاف تجارة الرقيق. وقد نجح نجاحاً نسياً في مهمته، إلا أنَّ عدم تقيُّده بأوامر الحكومة المصرية أدَّى إلى الاستغناء عن خدماته، وعاد إلى بريطانيا وكتب عدة مؤلفات عن رحلاته، وعن فترة خدمته مع الحكومة المصرية. وقد وجدت مؤلفاته إقبالاً، إذ أنَّ المجتمع الأوربي كان يود التعرُّف على مجاهل إفريقيا، وأهم مؤلفاته كتابه (اكتشاف منابع بحيرة ألبرت).

[2] ستانلي هنري مورتن (Stanley, Henny, Morton) (1841م - 1904م):

وهو أمريكي الجنسية، جاب أواسط إفريقيا، ووجد المساعدة في تجواله من العناصر العربية، وخاصة الزعيم العربي التبوتب (Tiptip) إذ أنَّ دخوله إفريقيا كان من جهة شرقها من زنجبار، وكان يمكن أن يُقتل، لحماقاته واستعماله السلاح الناري، لولا النجذات التي كان يتلقاها من التجار العرب. ثم بعد رجوعه إلى أوربا نشر كتابات عن رحلاته أكسبته شهرة. وعندما استنجد أمين باشا بأوربا تم اختياره بوساطة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية لقيادة حملة إنقاذ أمين باشا في المديرية الاستوائية، بعد أن أصبح جنوب السودان معزولاً عن العالم بسبب قيام الثورة المهدية فيه، وانقطاع الاتصال عن طريق مصر. ثمَّ بعد ذلك عمل مستشاراً للملك ليوبولد ملك بلجيكا، وهو مسيحي متطرِّف دعا الأوربيين في كتاباته إلى الدخول في إفريقيا وإنقاذها من العرب المسلمين، وأهم كتبه (رحلاتي في أواسط إفريقيا).

[3] شنايتزر الألماني:

والمعروف بـ(أمين باشا) وهو عالم طبيعي، ومكتشف تلقى تعليمه الجامعي في ألمانيا، ثم زار مصر والسودان عن طريق البحر

الأحمر، وزار سواكن وكسلا والقلايات، ووصل حتى أبي حراز عام 1864م ثم عاد إلى أوروبا. وزار السودان مرةً أخرى عام 1868م، وتوغل جنوباً حتى بحر الغزال ووصل حتى منطقة الزاندي حيث اكتشف نهري لول والروول في أراضي الفرتيت. وفيما بين (1870م – 1875م) زار الجزيرة العربية ومصر، وتم اختياره رئيساً للجمعية الجغرافية الخديوية المصرية. وبقي في برلين ما بين (1880م – 1886م) حين عكف على كتابه (دراسات في إفريقيا) في مجال تخصصه (Botany). وعندما ذاعت شهرته، عينه الخديوي إسماعيل باشا حاكماً. وفي فترة حكم المهديّة كان حاكماً على المديرية الاستوائية. وقد اعتنق الإسلام، وسمّى نفسه أمين باشا، ثم ارتدّ. ولما سقطت الخرطوم في أيدي قوات المهدي وانقطع الاتصال بمصر عن طريق شمال السودان استنجد بالدول الأوروبية لإنقاذه، وكتب عدة مقالات مثيرة، وقد تسابقت إليه كل من بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، وكان الغرض الحقيقي هو إسقاط الحكم الإسلامي في جنوب السودان الذي كانت تمثله دولة المهديّة. لقي مصرعه في أدغال إفريقيا أثناء محاولة هروبه من مكان ما بشرق إفريقيا، وقد تمت ترجمة كتبه لعدة لغات، ومن أشهرها (Emin Pasha in Central Africa)<sup>(1)</sup>.

#### [4] الرحالة لڤنڤستون (David Livingstone):

وهو اسكتلندي الأصل، انضمّ إلى هيئة تبشيرية مسيحية شجعتة على القيام بعدة رحلات إلى أواسط وجنوب إفريقيا، ويمكن تقسيم جولاته على النحو التالي:

(1) دياب أحمد إبراهيم، لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، ط/1، دار المريخ للنشر، الرياض،

1981م، من فيصل محمد موسى، ص 15.

- في الفترة ما بين (1849م - 1856م) تجول في جنوب إفريقيا، واكتشف بحيرة نجامي (Nagami) جنوب غرب نهر الزمبيزي، ووصل حتى مشارف شلالات فكتوريا، وعاد بعد رحلة شاقة إلى بريطانيا، وقد قام بنشر كتاب عن هذه الرحلة، منحه بموجبه جامعة أكسفورد الدكتوراة الفخرية في الجغرافيا.

- في الفترة ما بين (1858-1864م) عيَّته إنجلترا قنصلاً عاماً لها على الشاطئ الشرقي لإفريقيا. ومقره في مدينة الكاب، ومنها قام بجولة بين بحيرتي نياسا وتنجانيقا، ومنها أبحر حتى الهند ثم رجع إلى بريطانيا<sup>(1)</sup>.

- في الفترة ما بين (1866-1872م) قام لفنجستون بجولته الأخيرة بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية بلندن لتوضيح شبكة الأنهار والبحيرات في وسط إفريقيا خاصة بعد تضارب بعض الآراء حول منابعها ومصباتها، كما كُلف أيضاً بمحاربة تجارة الرقيق التي سبق أن كتب عنها في رحلاته السابقة بطريقة مثيرة للرأي العام العالمي. ونظراً لانقطاع أخباره أرسلت الجمعية الملكية ستانلي لتقصي أخباره، والتقى به في الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا، وقد كُذِّد أنها بحيرة منفصلة وليس لها اتصال بمرابع النيل في الاستوائية، كما كان يعتقد بيرتون. وتوفي في أوائل مايو 1873م في قرية تشيتامبو بإفريقيا، وأخذت جثته ودفن في مقابر المشاهير البريطانيين في فناء وستمنستر.

أمّا الجمعيات التبشيرية والمبشرون، فقد لعبوا دوراً مهماً في التمهيد لقدم الاستعمار في إفريقيا، إذ أنهم توغلوا بين الغابات والأحراش وعملوا بين الإفريقيين، ودرسوا عاداتهم ولغاتهم وتقاليدهم، وكتبوا عن ذلك في المجلات والصحف الأوروبية يحثون

(1) David Livingstone – C ap – 1964.P68..

فيها دولهم على القدوم نحو إفريقيا وأهم الجمعيات التبشيرية التي عملت في إفريقيا<sup>(1)</sup>:

#### أ/ جمعية آباء فيرونا:

وهي جمعية إيطالية تتبع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة، وتركز عملها في مناطق وسط إفريقيا وجنوب السودان. وبما أن المبشرين فيها أصلاً من الفلاحين الإيطاليين فقد استطاعوا التأقلم مع المناخ الاستوائي والأمراض. وأما المراكز التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية فهي:

مركز تبشير تونجا عام 1904م، ومركز تبشير مبلي عام 1904م، ومركز تبشير كيانجو عام 1904م، ومركز تبشير بشري عام 1905م، ومركز تبشير لول.

وقد كانت هذه الجمعية تتلقى دعماً مادياً من معظم كاثوليك أوروبا مما جعلها من أقوى الجمعيات التبشيرية في إفريقيا.

#### ب/ جمعة البريطانيين المبشرين:

وهي جمعية بروتستانتية بريطانية، تزعمت حركة استغلال العاطفة الدينية والقومية لدى الشعب الإنجليزي التي تولدت بعد مقتل غردون باشا في الخرطوم على أيدي المسلمين واستطاعت فرض إرادتها على الشعب الإنجليزي ليساهم في استعمار السودان وعلى الرغم من أنها كانت تحظى بتأييد الحكام البريطانيين في أوغندا وجنوب السودان إلا أنها كانت أقل نشاطاً وإمكانيات من الكنيسة الرومانية، ويعزى ذلك إلى انشغالها بالتبشير في أواسط السودان

(1) مدثر عبد الرحيم، القومية والاستعمار في السودان، الخرطوم، 1974م، من فيصل محمد موسى، مرجع سابق، ص 68.

وجبال النوبة. وقد أنشأت العديد من المراكز في المديرية الجنوبية وأوغندا ومن أهم مراكزها:

مركز تبشير مابوالي عام 1900م، مركز تبشير مبلي عام 1901م، مركز تبشير يامبيو عام 1916م، ومركز تبشير ياي عام 1917م.

وقد كانت هذه الجمعية تقدم النصح والإرشاد للإداريين البريطانيين الذين كانوا يعملون بإرشاداتها.

#### ج/جمعية المبشرين المتحدة:

وهي تتبع للإرسالية الأمريكية، وقد ارتبط نشاطها بنشاط الكنيسة النصرانية بأمريكا الشمالية وهي كنيسة البرسباري (The Bresbyerian Church) وكان نشاطها قد بدأ في مصر ثم امتد إلى السودان وأوغندا، وقد تمكنت بعد تحديد مناطق النفوذ من فتح عدة مراكز أهمها:

مركز تبشير جبل دوليب عام 1899م، ومركز تبشير الناصر عام 1910م.

ويلاحظ أنّ هذه الجمعية تختلف في أسلوبها عن الجمعيات الأخرى، إذ كانت تهتم بالتعليم الحرفي والمهني، ولم توزّع جهودها في مراكز عديدة.

والهدف الأساسي الذي كانت تعمل في إطاره كل الجمعيات هو إزالة الآثار العربية من إفريقيا، وتنصيرها. وسميت هذه السياسة بسياسة (اللاتعريب) أي محو العروبة، وكانت كل كنيسة لها الحرية في ابتكار السبل التي تحقق بها هذه الرسالة، واستمرت هذه السياسة



متصلة حتى عهد الاستعمار الذي كرّس كل جهده لتثبيت هذه السياسة<sup>(1)</sup>.

وأما الأساليب التي اتبعتها هذه الجمعيات في تحقيق أهدافها فكانت تتمثل فيما يلي:

- [1] تعليم الإفريقيين مبادئ القراءة والكتابة. ونظراً لعدم وجود مدارس مؤسسة في ذلك الوقت، فكان يتم تعليم الإفريقيين في مدارس الأحرار، وكان التعليم باللغات الأوروبية.
  - [2] تلقين الأطفال الإفريقيين مبادئ أولية عن الدين النصراني عن طريق الأنغام الموقعة، والموسيقى التي تستهوي الإفريقي.
  - [3] تقديم الخدمات العلاجية البشرية أو الحيوانية في عيادات متنقلة بين القبائل، وكان التركيز على الخدمات العلاجية وخاصةً للأبقار التي تُعدُّ حيوانات مقدسة عند بعض الإفريقيين.
- هكذا تتضح لنا الخطة المحكمة التي نفذها هؤلاء الرحالة وهم يدينون بالدين النصراني، وقد كانت في صورة كشوف جغرافية لإفريقيا، ولكن أسفرت عن وجهها الأيديولوجي، وتبع ذلك مجهودات هيئات التبشير التي أسفرت عن وجهها الحقيقي بعد أن تمكنت ووطّدت أقدامها، بالإضافة إلى جهود الشركات الأوروبية التي جاءت لتكمل الخطة تمهيداً للهيمنة الاستعمارية الأوروبية على إفريقيا<sup>(1)</sup>.

(1) بونا لبيب رزق، سياسة اللاتعريب، مجلة العلاقات العربية الإفريقية، ج/1، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971م.

(1) جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، بيروت، 1983م، من فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص 70.

## الخاتمة

### نتائج البحث:

توثقت العلاقات بين أوروبا وشمال شبه الجزيرة العربية، إثر غزو الاسكندر الأكبر لبلاد المشرق عام (356-323 ق.م)، وبعد ذلك صارت منطقة شمال شبه الجزيرة العربية منطقة صراع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الإغريقية التي أصبحت النصرانية ديناً رسمياً لها في القرن الثالث الميلادي.

وفي القرن السابع الميلادي ظهرت قوة جديدة امتد نفوذها عبر شبه الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها، وهي الدولة الإسلامية التي قامت إثر ظهور الإسلام.

وبظهور هذه الدولة في تلك المنطقة طويت صفحة الهيمنة الإغريقية الرومانية على الشرق، حيث تبدلت مراكز الثقل، وتغيّرت العلاقات الدولية، وسيطرت الدولة الإسلامية على الطرق البرية والبحرية، وعلى الموارد الاقتصادية في العالم، وعلى التجارة الدولية، بالإضافة إلى أن الدولة الإسلامية ذات حضارة تقوم على عقيدة وأيديولوجية جديدة تصحح وتكمل معتقدات الحضارة الغربية.

كل هذا وضع أوروبا أمام تحدٍ حضاري واقتصادي مما جعلها تحاول إعلاء هيمنتها على المنطقة عدة مرات وقد تمكّنت من ذلك بعد ضعف الدولة الإسلامية، وانقسامها إلى عدة دويلات. وبعد أن شرع الأسبان والبرتغاليون في تطبيق استراتيجية أطول أمداً ولكنها أكثر فاعلية. فكانت خطة هنري الملاح هي الالتفاف حول المنطقة الإسلامية، وبالفعل استطاع بارثولومودياز اجتياز رأس الرجاء الصالح عام 1488م، وفي عام 1497م وصل فاسكو داجاما إلى الهند، ومن ثم اتجه البرتغاليون إلى قفل منافذ التجارة الإسلامية في الخليج والبحر

الأحمر، وهكذا كانت محاولات التطويق والهيمنة عن طريق الكشوف الجغرافية التي أخذت بعداً دينياً منذ العصور القديمة وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، بأيدي رجال الدين. وقد أرسى إرثاً بوصفها الدقيق وتقريرها العلمية الدقيقة التي تُعدُّ هادياً لأسلوب الهيمنة الأوروبية على العالم الثالث بصفة عامة، وعلى العالم الإسلامي بصفة خاصة؛ لأيديولوجيته المناوئة للحضارة الأوروبية.

### توصيات البحث

- [1] المطلوب الوعي الديني والسياسي معاً لمعرفة أسلوب الغرب الأوربي، ومحاولاته على مر التاريخ وبأساليب متطورة للهيمنة على العالم الإسلامي.
- [2] لابد من كشف مخططات أعداء الإسلام الذين ما زالوا مستمرين في كشفهم عن العلاقات الاجتماعية للنسيج الاجتماعي الإسلامي في محاولة لاستغلاله في بث مخططاتهم الدينية والسياسية.
- [3] الكشوف الجغرافية أصبحت إرثاً حضارياً بالنسبة لأعداء الإسلام، وأدت إلى معرفة كافة مجالات المعرفة؛ وعليه لا بدّ من تتبّع هذه المعارف بالدراسة والتمحيص لتجنب مخاطرهم العدائية.
- [4] لابد من معرفة الصراع الأوروبي الاستعماري خاصة في العالم الإسلامي، وتتبع ذلك بالدراسة والبحث لدرئه والوقاية من شروره.

### المراجع العربية

- [1] جارودي روجيه: الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة م.ع كيلاني، دمشق دار الكاتب، عام 1996م.
- [2] جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، بيروت 1983م.
- [3] دياب أحمد إبراهيم: لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، ط/1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1981م.
- [4] زروق أسعد: إسرائيل الكبرى، بيروت، مركز الأبحاث، عام 1973م.
- [5] طمسون توماس: الماضي الخرافي للتوراة والتاريخ، ترجمة عدنان حسن دمشق، دار قدس، 2001م.
- [6] يسري الجوهرى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1975م.
- [7] كنعان جورجى: أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين، بيروت، دار الطليعة، 1987م.
- [8] كنعان جورجى: العنصرية اليهودية، بيروت، دار النهار، 1983م.
- [9] مدثر عبد الرحيم: القومية والاستعمار في السودان، الخرطوم، 1974م.
- [10] محمد هاشم عوض: مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، العدد (15)، دار جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، 1996م.

- [11] عبد الحميد عبد الغني: أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- [12] فؤاد الجابري: فيما يُسمَّى (صدام الحضارات) من الانترنت Fawgga@Hotmail.com.
- [13] فيصل محمد موسى: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مطبعة جامعة النيلين، الخرطوم، 1991م.
- [14] يونا لبيب رزق: سياسة اللاتعريب، مجلة العلاقات العربية الإفريقية، ج/1، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971م.

#### المراجع الأجنبية:

1. Alavi A. Arab Geography in the 9th hand 10th centuries, Indian geog journal 1974 vol. 22.
2. Ahmed, N, Muslim contributions to Geography, Lahore 1947.
3. Sybes (siperky), a history of exploration, London 1949.
4. Wood.H.J Exploration Discovery - LONDON 1951.
5. C. Broclemen - History of Islamic people - LONDON 1965.
6. André and Brown - African the Nineteenth century - ibdan 196.
7. David Livingston - cap - 1964.

البُعد الديني للكشوف الجغرافية  
أحمد بلولة

د. إبراهيم محمد